

أيام في باكستان

الطائرة « الجامبو » ٧٤٧ مثل الأتوبيس الضخم . الناس يجلسون صفوفاً على المقاعد ، أو يروحون ويجيئون في الممرات ، والمضيفات ينتقلن باستمرار لتلبية الطلبات التي لا تنقطع ، والبحر فيه طنين ، لا يرتفع إلى درجة الضجيج ولا ينخفض بحيث تستطيع ألا تلتفت إليه . جسم الطائرة كالבطن المنتفخ لحيوان ضخم ترحف فيها الديدان . الخطوط الانسيابية اختفت ، والألوان أصبحت باهتة ، والإحساس بأنك تحلق فوق السحاب وتشق الفضاء العريض كالصاروخ الخادئ تلاشي والألثة مع مجموعة صغيرة من المسافرين تحولت إلى مجرد تجمع من الأجساد والأرقام لا تعنى شيئاً . التكنولوجيا الحديثة تمحو تمايز الأشياء ، والناس ، وتحولها إلى مجرد أعداد وأنماط موحدة . في المطار أحسست فجأة بدفء الإنسان يعود . الضابط الأسمر استقباني بابتسامة بيضاء وبعينين سوداوين فيهما بريق وهو يقلب صفحات جواز السفر : « من مصر » . « نعم » . « تتحدث اللغة العربية » نطق الجملة بطريقة خاصة كأنه يحب الكلمات التي تخرج من بين شفثيه ويحرص على إعطائها حقها ، على استطاعها قبل أن تتلاشي وتموت .

« أتتحدث باللغة العربية » ؟

« إذن أنت أخ » أغلق الحقائق بنفسه وسلمني الجواز ثم أشار إلى الممرز « البلاد بلادكم » أحسست بكآبة الطائرة تتبخر . حملت حقائبي وخرجت من باب المطار . كانت أضواء الفجر تطارد بقايا الظلام عند الأفق البعيد . الشوارع صامتة خالية من الحركة ، ما عدا بعض سيارات الأجرة تقف في جمود بارد وإلى جوارها عدد من السائقين



پاکستان والعمین .. صداقة الأصدقاء

ينفضون بقايا النوم من عيونهم .

تقدم نحوي رجل قصير القامة ، أحمر الوجه ، شائب الشعر ورمقني بنظرة صارعة .

« د . شريف . . . »

« نعم ، أنا . . . »

مد يده وسلم على . وجهه ما زال صارعاً تبدو على كل حركة من حركاته أنه يقوم بتهمة خطيرة تستلزم أن يبدو جاداً .

« أنا ” أحمد بشير“ من الجهاز القومي لتنظيم الأسرة . السيارة في انتظارك . »

حصل عنى السائق حثائبي ودلفنا داخل السيارة الفارعة . انطلقت مسرعة بين صفوف البيوت التي ما زالت تغط في النوم .

« حجزنا لك في فندق إمبريال . »

« كم أجرة الحجرة ؟ »

« ٣٥ روبية في اليوم . »

« هذا كثير . ليس معي نقود تكفي . »

بدا على قسبات وجهه ما يشبه التقلص الخفيف أضاف جموداً إلى جمودها السابق .

« إذن سنذهب إلى فندق ”جارييس“ . الأجر هناك عشرون روبية في اليوم . »

« هذا أنسب . »

خاطب السائق بكلمات بدت إلى كحشرة تخلو من المقاطع المحددة . رأيت من الحلف يومئ برأسه العريض المسطح يشبه رعوس أهل الشام .

كراتشي مدينة ساحلية تنقلت بين أطرافها المترامية طوال الأسبوع الذي قضيته هناك . في يوم من الأيام قادتني خطواتي إلى حيث ينتزه

سكان المدينة بجوار البحر : مساحات من الرمال المخلوطة بالطمي ، مساحات رمادية فيها لزوجة مرهقة تنغرس فيها الأقدام ، وسور عريضة من الأتمنت يجلس عليه الناس ، وباعة جائلون يبيعون الحبوب الممصصة الحريفة ، وخيام ممزقة تحتمها بعض الموائد الخشبية ومقاعد من القماش مثل مقاهي الريف عندنا ، وأراجيح للأطفال : ورجل أسمر ظهره لتعبود ويعد حصيلة اليوم كأنه يحسب ماذا يمكن أن يشتره لأطفاله عند العودة ، وأنعاب نارية فيها تعاسة الفقر ، وبحر لونه خليط من القار الأسود والمساحات الرمادية تبدو حزينة تحت السماء المغطاة بالسحب . تذكرت جمال البحر الفيروزي على شواطئ الشمال في بلادنا ، البحر المتوسط كالجوهر الزرقاء تمتد إلى الأفق وفوقها أشعة الصيد البيضاء .

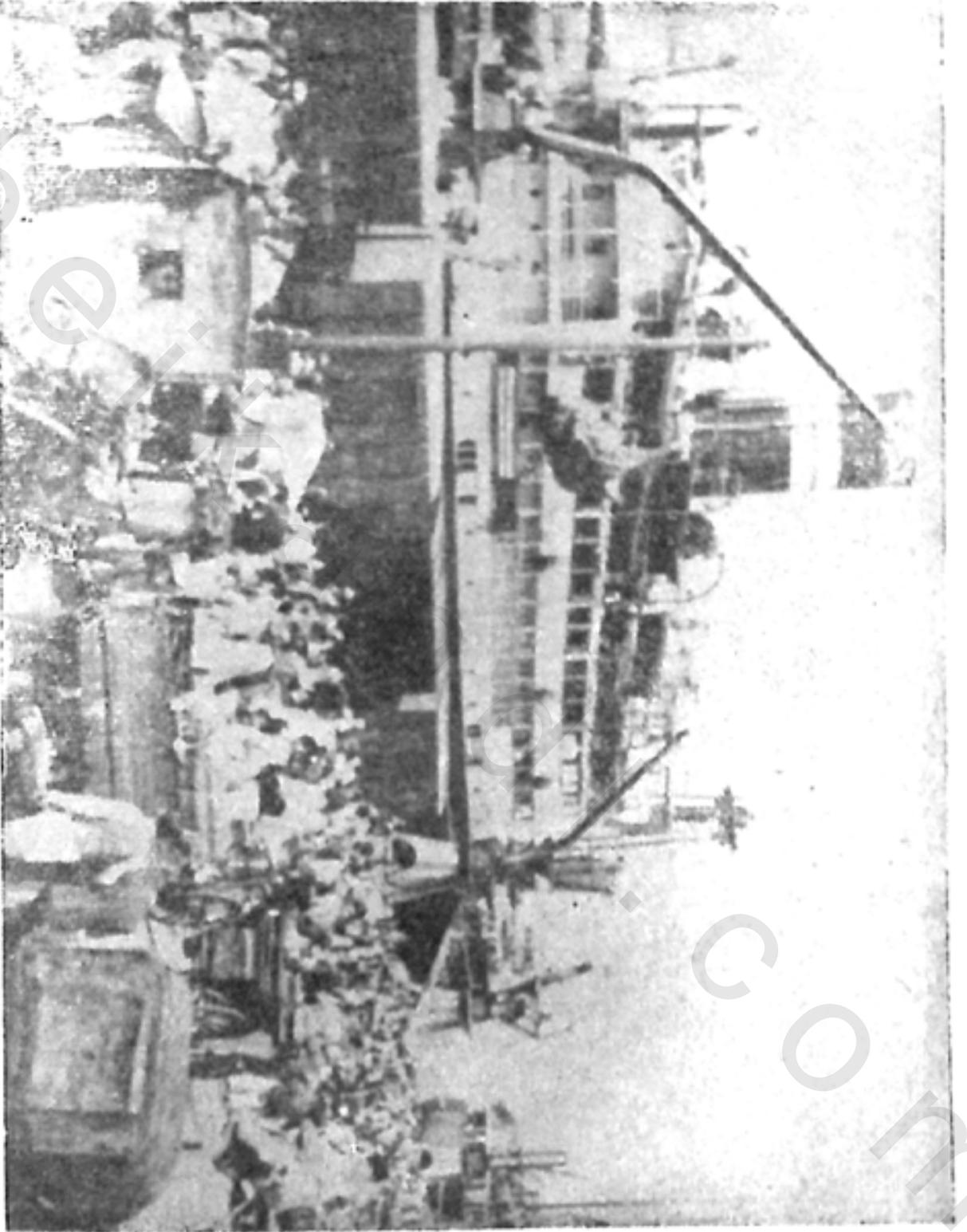
: البورى بزار . . . سوق الأقمشة ، والملابس الحريرية والمناديل وأفواج من الناس يسرون عبر الجوارى الضيقة يرتدون ألوان « السارى » التى تخطف البصر ، ألوان الشرق وسحره . وفى الحانات الضيق جلس الناجر ، جسد كالعصا الرفيعة يعرض مناديله ، مناديل من الحرير رسمت عليها الطيور ، والأشجار والزهور ، بمادة كالشمع يبسطها على القماش من أنبوبة صغيرة بيد الفنان الحاذق . دلفت عبر المدخل الضيق وأنقيت عليه السلام بالعربية . رمقني بنظرة حادة من تحت حاجبيه الأسودين الكثيفين . أشار إلى اثنين من الأمريكين جلسا أمامه وهو يستعرض بضاعته فوق البساط المزركش بألف لون وقال :

« انتظر حتى ينصرفا . فأنت أخ وأنا أريد أن أعطيك سعراً خاصاً » .

هنا اللغة العربية مفتاح القلوب وكلمات « السلام عليكم » كالنعويذة السحرية تشير بريقاً حاراً فى العيون ، وتصنع المعجزات . إنها تجعل كل شئ مستهلاميسوراً .

جئست فوق السجاد السميك أحسى زجاجة الكوكاكولا الكبيرة

پاکستان : میناء کرائچی



المثلجة التي أحضرها إلى صبي صغير وقف أمامي يتأملني بنظرة ثابتة جادة كأنه يدرسي على المهمل . بعد قليل فرغ الرجل من زبائنه والتفت إلى .

« أنت مصري ؟ »

« نعم » .

« ومسلم ؟ »

« ومسلم » .

نحن أيضاً مسلمون ، كلنا مسلمون هنا في باكستان . وأحسست بنغمة من المرارة في صوته وكلماته ، تلك المرارة التي أصبحت قادراً على اكتشافها منذ أن وطئت أقدامى أرض باكستان ، تختبي في ثنايا الأحاديث ، وتتخال مقاطع الألفاظ مهما كانت عادية . . . مرارة الهزيمة . قرأت في عينيه ذلك التلق الحائر الذي ألمح في كل العيون ، قلق الهزيمة يضطرب في الأعماق ويولد التساؤل حول المستقبل ، والشك في كل شيء .

ساد الصمت لحظة طويلة ، ثم قال :

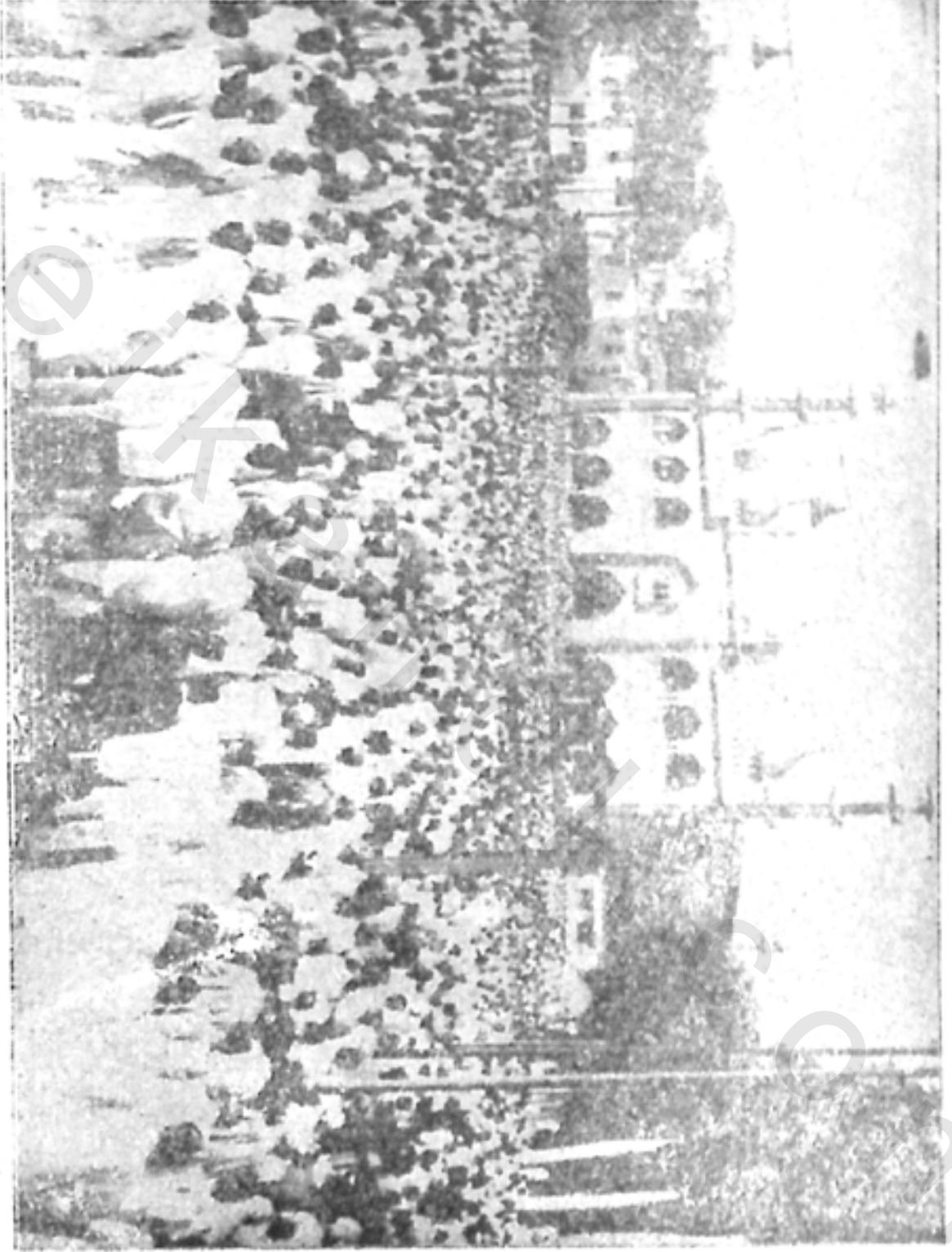
« إننا لا نريد أن نشغلك بكلامنا هذا . فأنت أتيت لتشتري وشاحاً من الحرير لا لتستمع إلينا . ولكن أريد أن أقول لك شيئاً . الهزيمة فتحت عيوننا على أشياء كثيرة والناس ليسوا على استعداد لأن يعيشوا مغمضى العيون كما عاشوا في الماضي . ومع الأيام فإن الناس سيأخذون مصيرهم بين أيديهم ليتصرفوا فيه بدلا من أن يتركوا حفة من الناس تتصرف كما تريد » .

خرجت من المحل أحمل وشاحين من الحرير لزوجتي ولأمي ، وأحمل معي صراعاً تجدد بين بين الأمل واليأس .

•••

لا أعرف حتى الآن لماذا أحسست أن لهذه البلاد سحراً خاصاً ؟
أهو بسبب تلك العاصفة من الأفكار التي تضطرم في العقول وتنفجر في

پاکستان : صدارۃ العہد

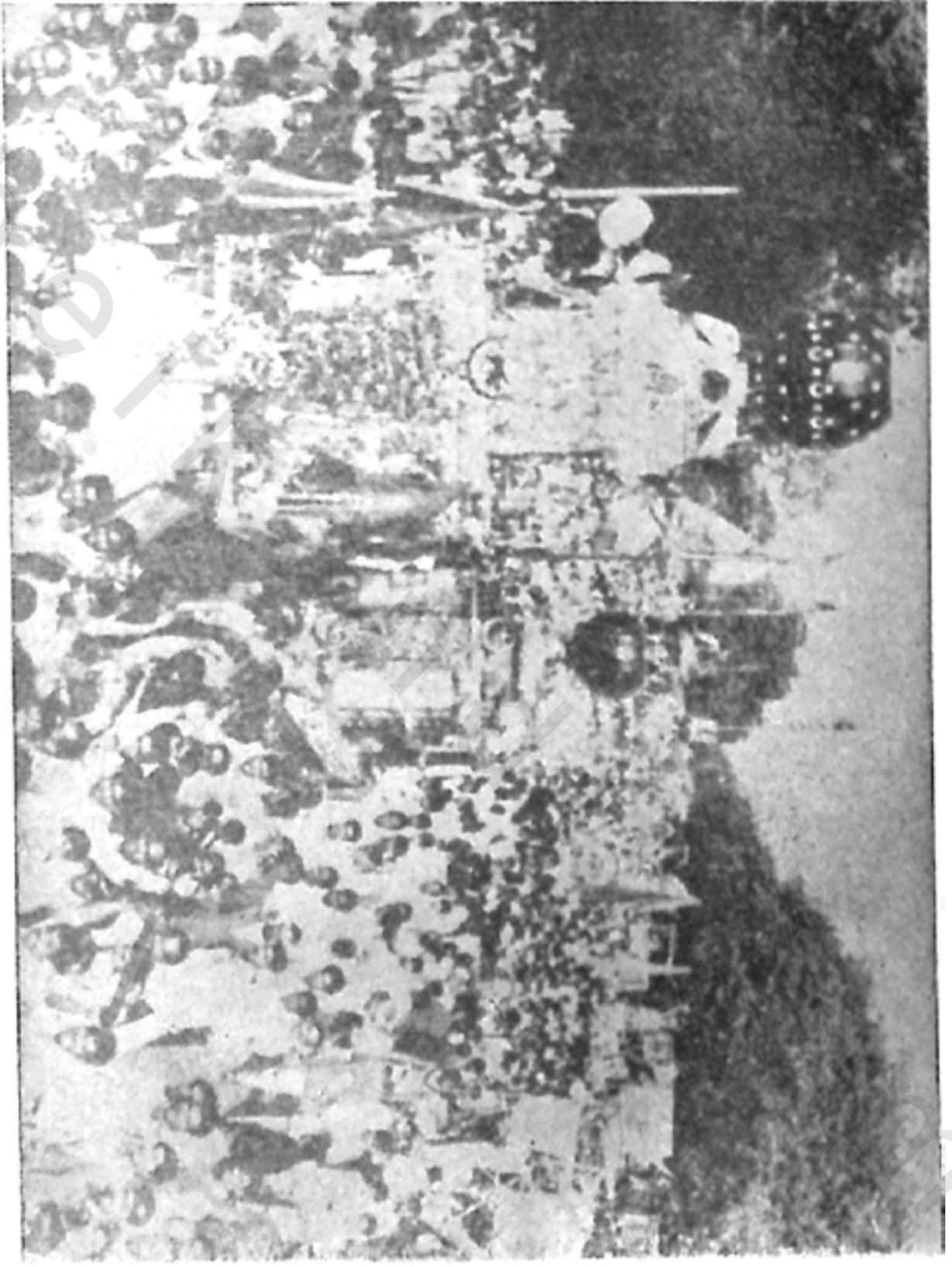


الكلمات؟ أم بسبب تلك الحرارة الثريفة التي يستقبلها بها الناس وكان مجرد وجودك يضفي عليهم سعادة لم يتفوقها من قبل ، فينتفون حولك ، تبرق عيونهم بحيرية متجددة وتسمع الأسنان البيضاء في ابتسامة حنوة ، يلتفتون كلماتك ، ويعرضون عليك خدماتهم ، ويهتمون براحتك وبكل التفاصيل الصغيرة التي تخص إقامتك . أسياراً نأيتك من الفجر إذا لزم الأمر ، وضباتك مجابة في خضت ومع ذلك يعتذرون في كل لحظة لأنهم لم يقوموا بالمزيد .

مراقتي أحمد بشير . . . الرجل انصارم الصامت الذي كان يضحى حتى بأرقام عضلته ليرافقتني في كل مكان والذي شعرت بسعادة خاصة عندما تمكنت بعد يومين من أن أجعله يضحك بصوت مسموع . عن طريقه اكتشفت أن « المانجو » في باكستان فاكهة لا مثيل لها في العالم ، كتلة من الحلاوة تسيل في الفم : وأن العنب ذا اللون الأصفر حياته مثل « بز العنزة » يجعلك تحتار بينه وبين المانجو : وأنه يوجد نوع من « الأيس كريم » « كوفلي » هو أطعم ما تذوقته حتى الآن ، فتدهش لماذا يتميز « الأيس كريم » في باكستان بالذات دون سائر البلاد .

وهو الذي قادني في يوم الاستملاك إلى زيارة ضريح « محمد علي جناح » . ضريح أبيض تراه من بعيد فوق ربوة تطل على كراتشي وتصل إليها عن طريق حدائق مدرجة تتخللها الزهور والنافورات وأحراض من الفسيفساء الزرقاء . الضريح مبني من الرخام في شكل مربع وترتفع فوقه قبة عالية ، وكل ضلع من الأضلاع يتخلله قوس عان مفتوح ، تطل منه على مئات الدرجات البيضاء التي تنحدر نحو الحدائق ، وعلى مدينة كراتشي ، وعلى البحر الرمادي يبدو قائماً من بعيد ، وتأيتك عبره لفحات من الهواء لا تحس بها في أي مكان آخر من المدينة . ولكن في هذا اليوم كان يغطي الحدائق ، والمدرجات المتصاعدة ،

پاکستان : میکر ایڈ



والمساحات البيضاء المحيطة بالضريح بساط أسود يكون من آلاف الأجساد المتلاصقة ، تلاحمت حتى أصبحت نسيجاً كثيفاً لم يترك ثغرة واحدة أو فجوة . وفوق الأكتاف رفعت اللافتات البيضاء ، وفوق الأعناق ارتفعت أجساد الخطباء ، وفي الفضاء العريض ترددت الهتافات كقصف الرعد تعلو وتهبط ، وتعلو من جديد وكأن قوة خفية تصر على إذكائها .

مررتنا بصعوبة بين الأجسام المتلاحمة حتى وصلنا إلى الضريح ، وحوله اصطلقت ضوايبير دائرية من الفتيان والفتيات وعلى أحجاره المرمرية المصنوعة أقباس الزهور والزورد يغلب عليها اللون الأبيض والبرتقالي .

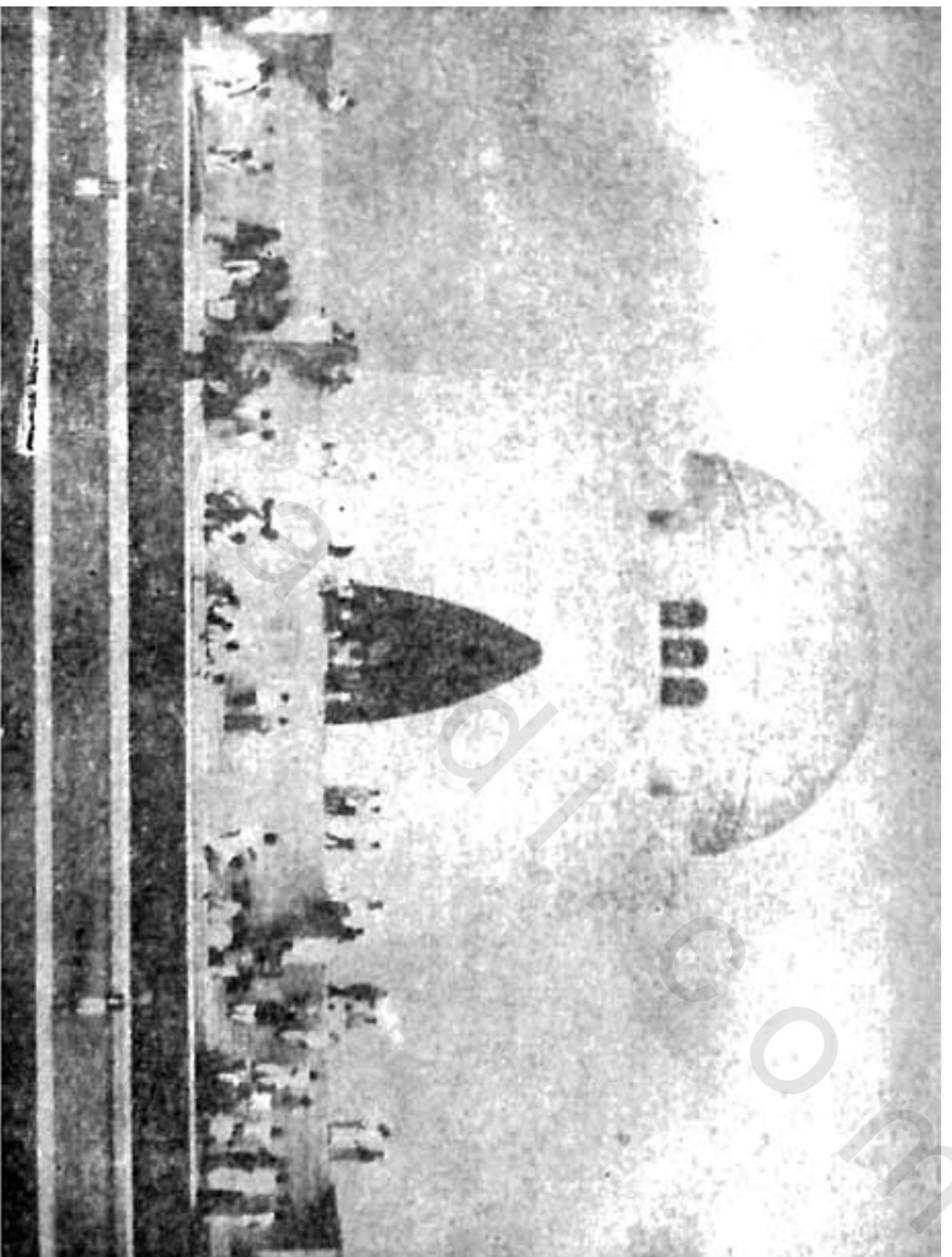
رفعت رأسي إلى السقف . رأيت نجفة مصنوعة من الذهب ومنحوتة بدقة تتدلى من داخل القبة العالية على سلسلة ذهبية طويلة . شيء ما في دقة الصنع وفي المتخامة المتناهية تشعرك بالبهنخ أو بالكرم الذي ينتمي إلى عصور مضت ، عصور كان يصنع فيها الأرقاء والعبيد التحف لأسيادهم .

لاحظ مرافقي حركة عيني المتأملة فقال :

« هدية من حكومة جمهورية الصين الشعبية » .

وأحمد بشير هو الذي أعطاني خريطة المدينة حتى أستطيع أن أتجول وحدي عندما صممت على أن يأخذ قسطاً من الراحة ، وأقنعتني أنني أستطيع أن أتصرف وحدي بدون أن أفقد طريقي .

وهكذا رأيت جامع وزارة الدفاع . إنه بناء دائري ضخم رصع بقطع من الحجر تنمى كالألماس وتتخلل جدرانها آلاف الفتحات المغطاة بالزجاج لونه كالمرمر . الجامع عبارة عن قبة عملاقة ترتكز على الأرض ، داخلها صحن دائري يسع سبعة آلاف من المصلين . أرضه مغطاة بساط سميك



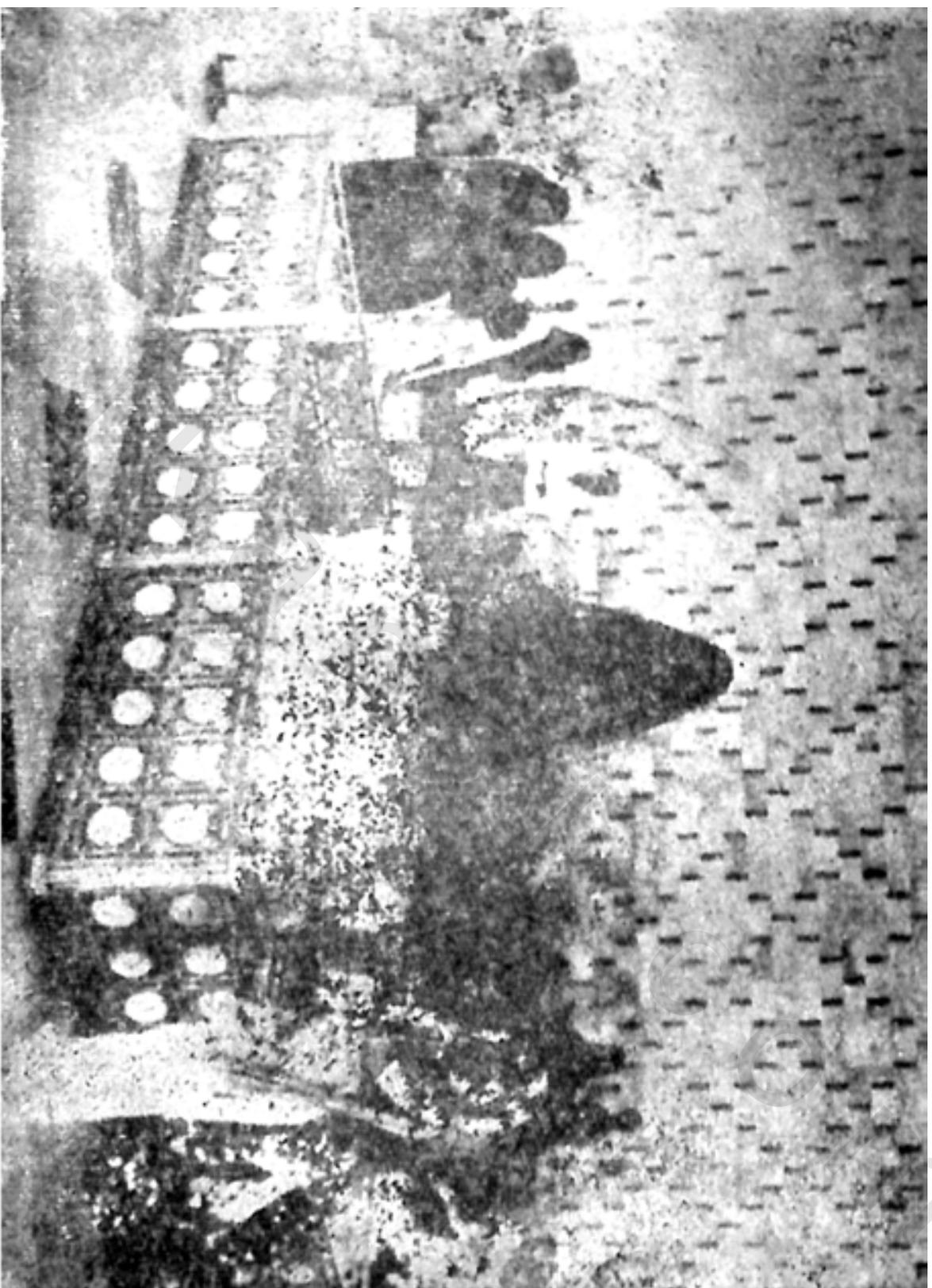
کراچی : ضریح « محمد علی جناح » مؤسس پاکستان

لونه سمى يبدو كأن كل مساحاته قطعة واحدة . والجامع يكاد يقول :
 أنا أشهد على قوة وزارة الدفاع وجبروتها .

وهكذا قادني خطواتي في إحدى الأمسيات إلى الأحياء الشعبية في
 كراتشي ، حديقة في قلب المدينة . . . مساحة خضراء مقسمة إلى
 مرتفعات ، ومقاعد ، ومشايخ ، والسما ترحف عليها أجنحة الليل ،
 وتطارد بقايا السحب ، كتل شداقة اختلطت فيها مساحات ذهبية ،
 وبشجيرة ، ووردية . . . لوحة تبهر الأبصار . وفي الحديقة الفوانيس
 الكهربائية تنقل برشاقة من عند محنية كالأعناق . والناس يسرون
 عبر الممرات ، أو يجلسون على الحشيش الأخضر ، أو ينامون على
 ظهورهم يتأملون أنوار النهار المنسجمة . وكل حركة تم عن الهدوء ، عن
 التأمل ، عن الاستمتاع باللحظة الطويلة كأنهم يمتصون منها آخر قطرة
 من السعادة .

وحول الحديقة من كل الجوانب شارع ضيق ، وحارات تتفرع منه .
 سوق ضخم يبيع الفواكه والخضراوات وأنواعاً مختلفة من الأطعمة المطبوخة .
 صفوف من الحيوانات الصغيرة ، أو الرفوف المقامة في العراء ، أو العربات
 الخشبية للباعة المتجولين ، وأوان ضخمة يتصاعد منها البخار ، وصوان
 ضخمة ترتفع منها أصوات الزيت الساخن ، وروائح السمك واللحم .
 وآلاف الناس يسرون .

وعندما تخترق الحديقة أو السوق لا ترى في هذه الأحياء سوى الرجال
 وعندما تذهب إلى دور عرض الأفلام في كراتشي ، وهي كثيرة ، لا تجد
 إلا الرجال . ودور العرض هذه متوسطة الحجم ، بسيطة وفي منتهى النظافة
 وأغلبية الأفلام المعروضة أمريكية ، بل أغلبيتها تتعرض لموضوعات
 جنسية . وهكذا تجد صورة أخرى من تلك التناقضات التي تميز المجتمعات
 النامية . . . مجتمع رجالي متمزت يقضي شبابه أغلب أوقات فراغه في
 مشاهدة الأفلام التي تدق على وتر الجنس .



کراتی : ضریح محمد علی جناح من الداخل